قامات من نور: الفلسطينيّات يضئن طريق المسيح - رؤية لاهوتيّة

خريستو المرّ

منذ عقود، واجهت الحركات النسويّة في الجنوب العالمي تهميشًا مزدوجًا: من جهة النظام الأبوي المحلي، ومن جهة أخرى التسلّط الكولونيالي والفوقيّة الثقافيّة لحركات نسويّة شماليّة تجاهلت، عمدًا أو جهلًا، معاناة النساء في ظلّ الاحتلال والاستعمار. تمحورت الرؤية النسوية الغربية - لا سيما في تياراتها البيضاء، الليبرالية - حول خبرات النساء الأوروبيات والأميركيات، مغفلة الألم المزدوج الذي تحياه نساء الجنوب، حيث يتقاطع القمع الذكوري مع العنف البنيوي للاستعمار.

هذه القراءة المختزلة للواقع النسوي العالمي وصلت، كما تروي الباحثة الفلسطينية ندى إيليا، إلى حدّ قمع الصوت الفلسطيني نفسه في الفضاءات الدولية، كما جرى في مؤتمر الأمم المتحدة عام ١٩٨٥، حين حاولت النسوية الأميركية الشهيرة بيتي فريدان منع نوال السعداوي من الحديث عن فلسطين، متذرّعة بأن «السياسة» لا مكان لها في المؤتمرات النسويّة، فيما كانت فريدان في الوقت ذاته تهاجم الفصل العنصري في جنوب أفريقيا، وهو أمر سياسيّ بامتياز! في الآن نفسه نجد في لبنان والعالم العربي أصوات وجمعيّات تدافع عن حرّية النساء وتبقى صامتة بشكل صادم فيما يتعلّق بالنساء الفلسطينيّات، إذ لا ترى سوى نوعين من العنف: العنف الذكوري في النظام الأبوي، وعنف التزمّت الديني (المشترك بين جميع الأديان السماويّة)، وتصمت عن عنف الإبادة الاستعماريّة كما صمتت من قبل عن عنف الاستعمار الصهيونيّ المتواصل منذ عام ١٩٤٨. أنّ أثر الاحتلال الصهيوني على النساء مُضاعف وخاص. فطالما منع الاحتلال العنصري النساء الفلسطينيات من الدراسة، أو تحرّش بهنّ في الطريق إلى المدرسة، وطالما تهجّم المستوطنون عليهنّ، وأجبرهنّ جنود الاحتلال على وضع أطفالهنّ عند الحواجز، وتعرّضن للإجهاض بشكل كبير بسبب الاعتداءات الإسرائيليّة.

كما فقدن مع عائلاتهنّ الأمان جرّاء تدمير منازلهنّ. وطالما اعتبر الاحتلال أنّ صحّتهنّ الإنجابيّة أمر سلبي ومصدر لـ«تهديد» سكاني. واليوم تحديداً، يقتل جنود حرب الإبادة الإسرائيليّة اثنتين من الأمّهات كلّ ساعة وسبع نساء كلّ ساعتين، وارتفعت نسبة إجهاض النساء الفلسطينيّات إلى ٣٠٠٪. هذا بالإضافة إلى أنّ وقع حرب الإبادة عليهنّ مُضاعف، إذ يعانين من انعدام الفوط الصحّية، ومن صعوبة ومخاطر الوضع وسط الدمار وانعدام النظافة (حوالي ١٨٠ ولادة يومياً)، ومن سوء التغذية الذي ينتقل إلى أطفالهن. وقد أظهرت تقارير عدّة حرمان الأسيرات من الضروريات الأساسية مثل الطعام والأدوية والفوط الصحّية، بالإضافة إلى تعرّضهنّ للضرب الجسدي المبرح، وللحبس في قفص معرّض للمطر والطقس البارد دون الحصول على طعام. وأفادت المفوّضيّة السامية لحقوق الإنسان أن النساء والفتيات الفلسطينيات قد تعرّضن للإعدام التعسّفي في غزة (مع أفراد الأسرة، بمن في ذلك أطفالهن).

هذا التناقض الأخلاقي لمن يصمت عن آلام الفلسطينيّات يطرح علينا سؤالًا لاهوتيًا تجاه المسيحيّين الصامتين عن آلام الشعب الفلسطينيّ: هل يمكن للعدالة أن تُجزّأ؟ وهل يليق بالمسيحيّة والمسيحيّ، أي لجسد المسيح، أن يصمت عن ألم جزء منه ويتكلّم عن جزء آخر؟

رؤية لاهوتية

من وجهة نظر مسيحية جسد المسيح هو الجماعة التي صارت واحدا مع المسيح، ومع أنّ التعريف اللاهوتيّ التقليدي يفسّر ذلك على أنّ جسد المسيح هم أولئك المسيحيّات والمسيحيّن، إلّا أنّ الرؤية اللاهوتيّة التي على قلب الله لا يمكنها إلّا أن تقول أنّ جسد المسيح السرّي يشمل أيضا المحبّون الذين

حملوا أوجاعهم كما يسوع، من كلّ لون وجنس ودين. جسد المسيح يشمل النساء الفلسطينيّات. كما يقول خومياكوف الكنيسة الأرضيّة «ليست هي ملء وكامل الكنيسة الكلّيّة التي عيّن الربّ ظهورها يوم دينونة الخليقة كلّها. الكنيسة الأرضيّة تعمل وتعلم فقط ما هو ضمن حدودها... ولكن هي لا تحكم على بقيّة الجنس البشريّ، ولا ترى أنّهم مُقصون، أي غير منتمين إليها، سوى هؤلاء الذين يريدون إقصاء أنفسهم. بقيّة الجنس البشريّ، أكان غريباً عن الكنيسة، أم متّحداً معها بروابط لم يُرِد الله أن يكشفها لها، تتركه [الكنيسة الأرثوذكسيّة] لحُكْم اليوم الأخير». جسد المسيح السرّي هو أوسع من الكنيسة المنظورة، هو يشمل الذين تعمّدوا بالألم والحبّ فضمّهم المسيح أغصانا إليه هو الكرمة الواحدة. هذا يحمّل المسيحيّات والمسيحيّين عبء وعي لأنّ آلام الآخرين هي آلامهم، لأنّ أوجاع الأعضاء في الجسد الواحد توجع الجسد كلّه. إنّ نسويّة مسيحيّة لا يمكنها أن تصمت عن آلام النساء الفلطينيّات.

ثمّ إنّ الرؤية الأرثوذكسية للإنسان – بوصفه أيقونة إلهية، حاملة للمجد والوجع معًا – ترفض مثل هذا التناقض، ترفض الانتقائيّة في التعاضد. لا يمكن أن يكون الإيمان المسيحي حيًّا إذا ما غفل عن الجراح التي يُلحقها الاحتلال الصهيوني بالإنسان في فلسطين. كيف يُمكن لجسد المسيح أن يحتمل السكوت على آلام الفلسطينيّين، وفي موضوعنا كيف له أن يصمت عن النساء الفلسطينيات اللواتي يُحرمن من التنقّل والتعليم، ويُعتدى عليهن عند الحواجز، وتُهدّم بيوتهنّ، وتُسلب أرحامهنّ، ويُمنعن من الولادة الآمنة، ويُحرمن من الغذاء والدواء، ويُضربن في السجون، بل ويُقتلن كل ساعتين في حرب إبادة متواصلة؟

اللاهوت الأرثوذكسي، الذي يرى الخلاص ليس في الانفصال عن التاريخ بل في تجسّد الخلاص، تجسّد محبّة يسوع وقوّة قيامته، في قلب التاريخ، يدعونا لأن نكون شهودًا على الحقيقة في وجه الكذب السياسي، ولسانًا للعدالة في وجه خطاب الخداع. وكما أنّ جسد المسيح في الجسد الفلسطيني المتألم، فإنّ صوته يكمن في كلّ صرخة لأجل الحقّ والحرّية.

إن كان من معنى عميق للنسويّة المسيحيّة، فهي بوصفها خيارًا أخلاقيًا قبل أن تكون أيديولوجيا: هي التزام بالوقوف مع كل متألمة، تمامًا كما وقفت النسوة بشجاعة عند الصليب أمام الجسد المرفوع على الصليب دون أن تنكرنه، في صمت مؤلم لا يتواطأ مع الجلّاد وإنّما يجدّ عند الصبح ليطيّب الجسد الذبيح بعطر الشهادة للحقّ، حتّى تأت الساعة لتعلنّ القيامة من الموت. النسويّة التي تتجاهل الاحتلال ليست حياديّة، بل شريكة في العنف. أما النسويّة التي تحتضن مقاومة النساء في فلسطين، فهي نسويّة القيامة، التي لا تخاف الموت لأنّها تعرف أن الربّ قد قام، وأنّ الحبّ أقوى من الاحتلال.

اليوم، ونحن نرى بأعيننا صلب الأمّهات الفلسطينيّات كلّ ساعة، ودموع الأطفال التي تجفّ قبل أن تجد حضنًا، نسمع نداء الإنجيل يُلحّ: «كنتُ جائعًا فلم تُطعِموني، سجينًا فلم تزوروني، مصلوبًا في غزة فلم تروني». فهل نكتفي بالصمت، أم نرتفع إلى مستوى الإيمان الحقّ، حيث كلّ ظلم يُدان، وكلّ ضحيّة تُرى، وكلّ احتلال يُرفَض؟ إنّ المسيحيّة ليست مجرّد طقس أو عقيدة، بل مسار خلاص يُكشف في التاريخ، عبر المحبّة الفاعلة، والصراخ النبوي في وجه السلطة الظالمة، والانحياز الدائم إلى من هم في القاع. وإنّ من لا يرى فلسطين من هذا المنظار، لا يرى بعدُ وجه المسيح في الأرض، ولا يرى الفلسطينيّات قامات من نور تضيء طريق المسيح.